

## النزول بالحجر:

وسار الجيش حتى بلغ الحجر، وبها أطلال منازل ثمود منقورة في الصخر. هنالك أمر رسول الله بالنزول، فاستقى الناس من بئرها. فلما راحوا قال لهم: لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجيب عجنتموه فأعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرج من أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له. ذلك أن المكان لم يكن أحد يريه، وكانت تعصف فيه أحياناً عواصف الرمل تطمر الناس والإبل. ولقد خرج رجلان على خلاف أمر الرسول، فاحتملت أحدهما الريح وطمرت الآخر الرمال. فلما أصبح الناس ألقوا هذه الرمال قد طمت البئر فلم يبق بها ماء، ففزعوا خيفة الظمأ، وقدروا هول ما بقي من طول الطريق. وإنهم لكذلك إذ مرت بهم سحابة أمطرتهم، فارتووا وأصابوا من الماء ما شاءوا وزايلهم الفزع، وطار أكثرهم سروراً، وأقبل بعض منهم على بعض يقولون إنها معجزة. أما آخرون فقالوا: إنما هي سحابة مارة.

## انسحاب الروم:

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته، فأثرت الانسحاب بجيشها الذي كانت وجهت إلى حدودها ليحتمي داخل بلاد الشام في حصونها. فلما انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونمى إليه ما أصابهم من خوف، لم ير محلاً لتتبعهم داخل بلادهم.

وأقام عند الحدود يتاجز من شاء أن ينازله أو يقاومه، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد. وكان يوحنا بن روية صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود. ولقد وجه إليه النبي رسالة أن يدعن أو يغزوه فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب، وقم الهدايا والطاعة، وصالح محمداً وأعطاه الجزية، كما صالحه أهل الجرباء<sup>(١)</sup> وأنرح<sup>(٢)</sup> وأعطوه الجزية.

## معاهدة أهل الحدود:

وكتب رسول الله ﷺ لهم كتب أمن، هذا نص أحدها - وهو ما كتب ليوحنا: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن روية وأهل أيلة سقتم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس. وإنه لا يحل أن يمتعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من ير أو بحر». وإبذاناً بالموافقة على هذا

(١) الجرباء: قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام.

(٢) أنرح: بلد في أطراف الشام من تواحي البلقاء وعلان مجاورة لأرض الحجاز وهي قرية من الجرباء.

العهد أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسج اليمن وأحاطه بكل صفوف الرعاية، بعد أن اتفق على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلثمائة دينار في كل عام.

#### غزوة ابن الوليد دومة:

لم يبق محمد ﷺ في حاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم، وبعد معاهدة البلاء الواقعة على الحدود معه، وبعد أمنه عودة الجيوس البيزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاص أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة<sup>(١)</sup>، ومعاونته. جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته. ولذلك بعث النبي ﷺ إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس وانقلب بجيشه راجعاً إلى المدينة. وأسرع خالد بالانتقاص على دومة في غفلة من مليكها الذي خرج في ليلة مقيمة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش. ولم يلق خالد مقاومة تذكر، فقتل حسان وأخذ أكيدر أسيراً وهدده بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها. وفتحت المدينة الأبواب فداءً لأميرها. وساق خالد منها ألفي بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وُسق من بُرّ وأربعمائة درع، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبي ﷺ في عاصمته. وعرض محمد ﷺ الإسلام على أكيدر فأسلم وأصبح له حليفاً.

#### عودة المسلمين إلى المدينة:

لم يكن عود محمد ﷺ على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين. فلم يدرك كثير من هؤلاء مغزى الاتفاق الذي عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له، ولم يقيموا كبير وزن لما حققه محمد بهذه الاتفاقات من تأمين حدود سبب الجزيرة وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم، بل كان كل الذي نظروا إليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة، وتحملوا في قطعها ما تحملوا من الأذى، ثم عادوا لم يغنموا ولم يأسروا، بل لم يقاتلوا؛ وكل الذي فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوماً. فهل لهذا قطعوا الصحراء في شدة القَيْظ في حين كانت ثمار المدينة قد طابت وأن أن يستمتع الناس بها؟! وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ﷺ: ونقل من ملأ الإيمان قلوبهم نبأهم إليه. فأخذ المستهزئين بالشدّة حيناً وباللين حيناً، والجيش يسير قافلاً إلى المدينة ومحمد يحفظ النظام في صفوفه. حتى إذا انتهى إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها؛ لحقه ومعه أكيدر، وما حمل من دومة من إبل وساة وبرّ ودروع. وعلى أكيدر حلة من ديباج موشى بالذهب بهت أهل المدينة لمراها.

#### المتخلفون:

هنالك اضطرب الذين تخلفوا عن اتباعه اضطراراً ردّ المستهزئين إلى صوابهم. جاء المتخلفون يعتذرون وأكثرهم يشوب مصاديره الكذب. وأعرض محمد عما صنعوا تاركاً لله حسابهم. لكن ثلاثة

(١) دومة: هي المعروفة بدومة الجندل، على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة.

صَدَقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَعْتَرَفُوا بِتَخْلُفِهِمْ وَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ. هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمُ كُتُبُ بَنِي مَالِكٍ، وَمُرَارَةُ ابْنِ الرَّبِيعِ، وَهَلَالُ بَنِي أُمَيَّةَ. وَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ أَمْرُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَعْرَضَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ خَمْسِينَ يَوْمًا لَا يَكَلِّمُهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُسْلِمٍ تِجَارَةٌ. ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ وَعَفَا عَنْهُمْ وَنَزَلَ فِيهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

### النشدة على المنافقين - إحراق مسجد الضرار:

من يومئذ بدأ محمد ﷺ يشتد في معاملة المنافقين شدة لم يألفوها من قبل، ذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يُخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه. ولم يقم بنفس محمد ريب، بعد أن وعده ربه لينصرن دينه وليُعلين كلمته في أنهم سيزدادون من بعد أضعاف زيادتهم اليوم، وعند ذلك يصبح المنافقون خطراً عظيماً. ولقد كان له من قبل، حين كان الإسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجري بين المسلمين. أما وقد انتشر الدين في أنحاء بلاد العرب جميعاً، وهاهو ذا يشارف الانتقال منها فكلُّ تهاون مع المنافقين شرٌّ يخشى مغيبته، وخطرٌ ما أسرع ما يستشري إذا لم تُجَنَّبْ جُرْثُمَتُهُ. بنى جماعة مسلماً بذي أوان، بينه وبين المدينة نحو ساعة؛ وإلى هذا المسجد كان يأوي جماعة من المنافقين يجاونون أن يجرؤوا كلام الله عن مواضعه. وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضراً وكفراً. وطلبت هذه الجماعة إلى النبي أن يفتح المسجد بالصلاة فيه. وكان طلبهم هذا قبل تبوك، فاستهلمهم حتى يعود. فلما عاد وعرف أمر المسجد وحقيقة ما قصد إليه من إقامته أمر بإحراقه، فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانزروا، ولم يبق لهم من يحميهم إلا عبد الله بن أبي شيخهم وقائدهم.

على أن عبد الله لم يُعمر بعد تبوك غير شهرين مرض إثرهما ومات ومع أن الحقد على المسلمين قد كان يأكل قلبه منذ نزل النبي المدينة؛ فقد آثر محمد ألا ينال المسلمون ابن أبي بسوء. ولم يلبث النبي حين دُعي للصلاة عنه لما مات أن صلى وقام على قبره إلى أن دُفن وُفِرغ منه. وعموته انهار ركن المنافقين. وآثر من بقى منهم أن يُخلص لله توبته.

### تبوك خاتمة الغزوات:

بغزوة تبوك تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة كلها، وأمن محمد كل عادية عليها، وأقبل سائر أهلها

وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويُعلنون قه الإسلام ولقد كانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبي عليه السلام ومن بعدها أقام محمد بالمدينة مغتبطاً بما أفاء الله عليه.

### غبطة النبي ﷺ بإبراهيم:

وكان ابنه إبراهيم قُرَّة عينه له ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً، فكان إذا فرغ من استقباله الوفود ومن القيام بأمر المسلمين، ومن أداء حق الله ورسالته وحق أهله جميعاً لهم، اطمأنت نفسه برؤية هذا الطفل الذي ظل يتعرعرع وينمو ويزداد شبيهة بمحمد وضوحاً بما يزيد أباه له حباً وبه تعلقاً. وخلال هذه الأشهر جميعاً كانت حاضنته أم سيف ترضعه وتسقيه لبن الماعز التي أهداها النبي إليها.

ولم يكن تعلق محمد ﷺ بإبراهيم لغاية في نفسه لها اتصال برسالته أو بمن يخلفه؛ فقد كان عليه السلام في إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر في ولده ولا فيمن يرثه؛ بل كان يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ماتركناه صدقة». إنما هي العاطفة الإنسانية في أسمى معانيها؛ العاطفة الإنسانية التي بلغت من السمو في نفس محمد مالم تبلغه في نفس أحد غيره؛ العاطفة الإنسانية التي جعلت العربي يرى فيمن يخلفه من الذُكران صورة من صور الخلود - هذه العاطفة الذي جعلت محمداً يخلع على إبراهيم كل هذا الحب؛ ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده. ولقد زاد هذه العاطفة رقة وقوة في نفسه أن فقد ولديه القاسم والظاهر وهما ما يزالان طفلين في حجر أمها خديجة، وأنه فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن وصرن أزواجاً وأمهات؛ فلم يتبق له منهن غير فاطمة. هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فدققتهم بيده تحت صفائح الثرى، تركوا في نفسه قرحة ألم اتلمعت بولد إبراهيم وأثمرت مكانها رجاء وأملاً؛ وكان جلاً له أن يعتلئ بهذا الأمل غبطة واستبشاراً.

### مرض إبراهيم:

لكن هذا الأمل لم يكن ليطول إلا تلك الأشهر التي ذكرنا. فقد مرض إبراهيم بعدها مرضاً خيف منه على حياته، فنقل إلى نخل بجوار مشربة أم إبراهيم، وقامت من حوله مارية وأختها سيرين تمرضانه. ولم يطل بالطفل المرض. فلما كان في الاحتضار وأخبر النبي بأمره، أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف يعتمد عليه لشدة ألمه، حتى أتيا إلى النخل بجوار العالية التي تقوم المشربة اليوم مكانها. فوجد إبراهيم في حجر أمه يجود بنفسه، فأخذه فوضعه وقلبه يجف ويده تضطرب وقد ملك الحزن عليه فؤاده، وبدت صورة الأمل على قسماط وجهه. وضعه في حجره وقال: «إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً». ثم وجم وذرفت عيناه، والغلام يجود بنفسه، وأمّه وأختها تصيحان فلا ينهاما رسول الله!. فلما استوى إبراهيم جنماً لا حراك به ولا حياة فيه، وانطفأ

بموته ذلك الأمل الذى تفتحت له نفس النبي زمنًا، زادت عينا محمد تهتانًا وهو يقول: «يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حقٌ، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزننا عليك أشد من هذا». وبعد أن وجم هنيهة قال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون».

ورأى المسلمون ما بمحمد من حزن، وحاول حكماؤهم أن يردوه عن الإمعان فيه، فذكروه بما نهى عنه؛ فقال: «ما عن الحزن نهيتُ وإنما نهيتُ عن رفع الصوت بالبكاء. وإن ماترون بي أثر مافي القلب من محبة ورحمة. ومن لم يُبِد الرحمة لم يُبِد غيره عليه الرحمة» أو كما قال. ثم إنه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته، ونظر إلى مارية وإلى سيرين نظرة عطف، وطلب إليهما أن تهوئا عليهما قائلًا: «إن له لمرضعا في الجنة» ثم إن أم بردة غسلته - أو غسله الفضل بن عباس، في رواية أخرى - ومُهِل من بيتها على سرير صغير، وشيعه النبي وعمه العباس وطائفة من المسلمين إلى البقيع حيث دُفن بعد أن صلى النبي عليه. فلما تم دفنه أمر محمد بسد القبر ثم سوَّى عليه بيده ورش الماء وأعلم عليه بعلامة وقال: «إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحى. وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يُتقنه».

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس؛ فرأى المسلمون في ذلك معجزةً وقالوا إنها انكسفت لموته. وسمعهم النبي: «أترى فرط حبه لإبراهيم وشديد جزعه لموته قد جعله يتعزى بسماع مثل هذه الكلمة، أو يسكت على الأقل عنها، أو يعزير الناس إذ يراهم مأخوذين بما يحسبونه المعجزة؟ كلا! فمثل هذا الموقف إن لاق بالذين يستغلون في الناس جهالتهم، أو لاق بالذين يُخرجهم الحزن عن رشادهم، فهو لا يليق بالنزلة الحكيم، فما بالك بالرسول العظيم! لذلك نظر محمد إلى الذين ذكروا أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تُخسفن لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة». آية عظيمة أكبر من ألا ينسى الرسول رسالته في أشدِّ المواقف التى تملأ نفسه بالفجيعة والهول! لقد وقف من تناول من المستشرقين هذا الحديث لمحمد موقف الإجلال والإعظام، ولم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكبارهم وإعلان عرفاتهم بصدق رجل لا يرضى في أدقِّ المواقف إلا الصدق والحق.

تُرى ماذا كان شعور أزواج النبي بفجيعة في إبراهيم وحزنه الشديد عليه؟ أما هو فتعزى بفضل الله، ويمتابته أداء رسالته، وبازدياد الإسلام انتشارًا في هذه الوفود التى كانت ما تقتأ تتوارد إليه من كل صوب؛ حتى لقد دُعيت هذه السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود، وهى السنة التى حج أبو بكر فيها كذلك بالناس.